

الكامل في التاريخ لابن الأثير

بمقام

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد كلية الآداب - جامعة القاهرة

بالجزري . وجزيرة ابن عمر بلدة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام سميت بالجزيرة لأن نهر دجلة يحيط بها من ثلاث جهات ، ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن أول من عمرها هو الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي حوالي سنة ٢٥٠ هـ ، في حين يؤكد ابن خلكان أنها منسوبة إلى رجل بناها اسمه عبد العزيز بن عمر .

ومهما يكن من أمر فقد شب المؤرخ ابن الأثير في جزيرة ابن عمر - أو الجزيرة العمرية - كما أسماها السبكي في طبقات الشافعية ، ثم سار صحبة والده واخوته إلى الموصل حيث استقروا جميعاً فيها . وهناك في الموصل وجد عز الدين ابن الأثير مجالا واسعاً لنشاطه والتزود بالعلم والمعرفة ، فسمع من خطيب الموصل أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي ومن أبي الفرج يحيى الثقفي ومن مسلم بن علي السنجي ومن في طبقتهم . ولم يلبث ابن الأثير أن عرف بالفضل والعلم ، فحظي بعطف صاحب الموصل الذي استفسره في بعض الأمور من جهة وأوفده سفيراً إلى أولى الأمر في بغداد من جهة أخرى . وهكذا أتاحت الفرصة لابن الأثير لكي يطلع على كثير من بواطن الأمور السياسية في المشرق الإسلامي على أيامه ؛ فضلاً عن أنه كان ينتهز فرصة

كانوا ثلاثة إخوة اشتهر كل منهم باسم « ابن الأثير » ، وعرفوا جميعاً بالعلم والفضل ، مما خلد اسمهم بين أعلام العرب وأعظم مؤلفيهم وعلمائهم . أما أكبر الأخوة الثلاثة فهو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الذي ولد سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) وتوفي بالموصل سنة ٦٠٦ هـ (١٢١٠ م) ، وقد كرس حياته لدراسة القرآن والحديث والنحو ، وله مؤلفات ذكرها ابن خلكان عندما ترجم له في وفيات الأعيان (طبعة بولاق ص ٥٥٧ - ٥٥٨) . وأما أصغر الإخوة الثلاثة فهو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله الذي ولد في الجزيرة سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) وتوفي في بغداد سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) ؛ وقد اشتهر بجودة أسلوبه ، ويعتبر كتابه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » من أهم المراجع في علم البلاغة . وله مؤلفات أخرى ذكرها ابن خلكان وبروكلمان .

على أن الذي يهمننا في بحثنا هذا هو الأخ الأوسط أو الثاني ، وهو عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري . ولد سنة خمس وخمسين وخمسمائة للهجرة (١١٦٠ م) في جزيرة ابن عمر ، ونسب إليها فعرف

تردده على بغداد لسمع فيها من مشايخها مثل أبي القاسم يعيش بن صدقة الشافعي وأبي أحمد عبد الوهاب بن علي الصوفي وعبد المؤمن بن كايب وعبد الوهاب بن سكينه وغيرهم من كبار الفقهاء والعلماء .

ثم إن ابن الأثير رحل إلى الشام ، فتردد على دمشق وحلب والقدس . من ذلك ما يرويه ابن خلكان من أنه عندما زار حلب في أواخر سنة ست وعشرين وسمائة للهجرة ، وجد عز الدين ابن الأثير مقبلاً بحلب في صورة الضيف عند الطواشي شهاب الدين طغريل الخادم أتابك الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب . ويمضي ابن خلكان في روايته فيقول إن الطواشي المذكور كان كثير الإقبال على ابن الأثير حسن الاعتقاد فيه مكرماً له . ثم أتاحت الفرصة لابن خلكان ليجتمع بابن الأثير « فوجدته رجلاً مكملًا في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع ، فلازمت التردد إليه ؛ وكانت بينه وبين والده رحمه الله تعالى موانسة أكيدة فكان بسببها يبالغ في الرعاية والاكرام » .

وفي أثناء سنة سبع وعشرين وسمائة سافر ابن الأثير إلى دمشق حيث سمع من أبي القاسم بن صصرى وزين الأمان ؛ ثم عاد إلى حلب سنة ثمان وعشرين حيث استأنف الاتصال به « على عادة التردد والملازمة » ابن خلكان . ولم تطل إقامة ابن الأثير في حلب تلك المرة ، وإنما توجه إلى الموصل ، حيث عكف في أواخر عمره على الحديث ، حتى توفي بالموصل في شعبان وقيل في رمضان سنة ثلاثين وسمائة للهجرة (١٢٣٤ م) .

وهكذا يبدو لنا من دراسة تاريخ حياة عز الدين ابن الأثير أنه عاش منقطعاً للعلم تحصيلًا وتدريساً ، « فسمع العالي والنازل » على قول السبكي في طبقات الشافعية ، وروى عنه كثيرون مثل الزينبي والشهاب القوصي والمجد بن أبي جرادة والشرف بن عساكر وسنقر القضاعي ، وغيرهم ممن اعتبرهم السبكي « من

أشياخ شيوخننا » . وليس أدل على مكانة ابن الأثير العلمية من أن عالمًا مثل أبي محمد التستري يشير إليه فيقول « وذكر شيوخننا ابن الأثير في تاريخه . . . » . أما ابن خلكان فيقول عن ابن الأثير « إن بيته كان مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها . وكان إماماً في حفظ الحديث ومعرفة وما يتعلق به ، وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم » .

على أن ابن الأثير لم يكن محصلاً للعلم ومدرساً فحسب ؛ بل كان مؤلفاً نشيطاً ومصنفًا بارعاً ؛ استطاع أن يخلد اسمه بين كبار المؤرخين وفطاحل الكتاب المسلمين . والمعروف لدينا من كتب عز الدين بن الأثير ومصنفاته ما يلي :

أولاً : اختصر ابن الأثير كتاب الأنساب لأبي سعد عبد الكريم السمعاني ، واستدرك عليه فيه مواضع ، ونبه إلى أغلاط وأخطاء ، وزاد عليه أشياء أهملها السمعاني . وقد سمي ابن الأثير هذا المختصر باسم « اللباب » ؛ ووصف ابن خلكان هذا الكتاب بأنه « مفيد جداً ، وأكثر ما يوجد اليوم بأيدي الناس هذا المختصر ، وهو في ثلاثة مجلدات والأصل في ثمانية ، وهو عزيز الوجود ، ولم أره سوى مرة واحدة في مدينة حلب ، ولم يصل إلى الديار المصرية سوى المختصر المذكور » . وبعد ابن الأثير جاء السيوطي فاختصر كتاب اللباب وأسمى مختصره الجديد « لب اللباب » .

ثانياً : ألف ابن الأثير كتاباً في ستة مجلدات كبار في تاريخ الصحابة ، أسماه « أسد الغابة في معرفة الصحابة » والكتاب عبارة عن معجم مرتب على حروف الهجاء ، وقد طبع في القاهرة في خمسة أجزاء سنة ١٢٥٨ هـ .

ثالثاً : ألف ابن الأثير تاريخاً للموصل في عهد أسرة عماد الدين زنكي وقد سمي هذا الكتاب « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » ؛ بدأه بسرد أخبار قسم

الدولة آقسنقر - والد عماد الدين زنكى - سنة ٤٧٧ هـ ،
ثم عالج فيه تاريخ الزنكيين وامتداد نفوذهم إلى الشام
في عصر الحروب الصليبية ، حتى اختتم كتابه أخيراً
بالمملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه سنة
٦٠٧ هـ . ويعتبر هذا الكتاب مرجعاً هاماً من مراجع
الحروب الصليبية - وبخاصة على عصر عماد الدين زنكى
ونور الدين محمود - ؛ فضلاً عما فيه من معلومات ممتعة
عن أحوال الموصل والحياة فيها ونظم الزنكيين . وقد
نشر هذا الكتاب المستشرق دى سلين ضمن مجموعة
مؤرخى الحروب الصليبية ، التى طبعت فى باريس فى
القرن التاسع عشر ؛ كما قام بتصحيحه ونشره أخيراً
الأستاذ عبد القادر طليبات وطبع بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م
رابعاً : أما أهم مؤلفات ابن الأثير فهو كتابه
« الكامل فى التاريخ » . وهذا الكتاب الذى يعتبر بحق
أشهر تصانيف ابن الأثير وأعظم مؤلفاته ، هو موضوع
دراستنا فى هذا البحث .

والواقع أننا نلاحظ من ثنايا عرضنا السريع السابق
لمصنفات ابن الأثير ، اهتماماً خاصاً منه بدراسة التاريخ
بحيث نستطيع أن نقرر إن مصنفاته الأربعة السابق
الإشارة إليها تدخل جميعها فى دائرة التاريخ . ويبدو
أن ابن الأثير اكتسب هذه الحاسة التاريخية فى صباه ،
إذ يروى فى مقدمة كتابه « التاريخ الباهر » أن والده
كثيراً ما كان يحدثه عن الموصل وأخبار ملوكها من
بنى زنكى . هذا إلى أن ابن الأثير يحكى عن نفسه فى
مقدمة كتابه الكامل ، فيقول : « لم أزل محباً لمطالعة
كتب التواريخ ومعرفة ما فيها ، مؤثر للاطلاع على
الجلي من حوادثها وخافيتها ، مائلاً إلى المعارف والآداب
والتجارب المودعة فى مطاويها . . . » .

وكان من الطبيعى أن يفكر عالم يتمتع بهذه الملكة
التاريخية فى تأليف كتاب عام فى التاريخ يجمع سير
الأوليين وأخبارهم ويكون مرجعاً للآخرين يستمدون
منه الحقائق والعظات . ويحدثنا المؤرخ ابن الأثير نفسه

عن الحوافز التى دفعته إلى تأليف كتابه « الكامل فى
التاريخ » ، فيقول إنه أخذ يتأمل كتب التاريخ المتداولة
على أيامه ، فوجدها « متباينة فى تحصيل الغرض ، يكاد
جوهر المعرفة بها يستحيل إلى العرض » . فبينما بعضها
مطول بصورة تثير الملل لكثرة ما بها من روايات
وأسانيد ؛ إذا بالبعض الآخر يسرف فى الإيجاز لدرجة
تخجب ضوء الحقيقة ولا تجلى غامضها . هذا إلى أن
ابن الأثير أخذ على المؤرخين السابقين الذين قرأ لهم
عدم استطاعتهم التفرقة بين الهام والأهم « فترك كلهم
العظيم من الحوادث والمشهور من الكائنات ، وسود
كثير منهم الأوراق بصغائر الأمور ، التى الاعراض
عنها أولى وترك تسطيرها أحرى ، كقولهم : خلع فلان
الذى صاحب العيار ، وزاد رطلا فى الأسعار ؛
وأكرم فلان وأهين فلان ! ! » .

هذا إلى أن ابن الأثير عاب على المؤرخين السابقين
أن كلا منهم أرخ إلى الوقت الذى عاش فيه ، ثم جاء
بعده من ذيل عليه وأضاف ما استجد بعد تاريخه .
ومعنى ذلك أن كتابات المؤرخين المتأخرين زمنياً
اتصفت بالجمود لأنهم لم يحاولوا تمحيص الحقائق التى
كتبها من سبقهم وإنما تركوها كما هى وذيّلوا عليها
وأبقوا على ما فيها من خلل وعيوب . ثم إن ابن الأثير
أخذ على الكتابات التاريخية التى اطلع عليها عدم مراعاة
التوازن بين أجزائها ، فالمؤرخ الشرقى أهتم بأحوال
المشرق ولم يعط المغرب حقه من العناية فى كتابته ؛
وإذا كان المؤلف مغرباً أهمل أحوال المشرق وركز
عنايته فى المغرب وحده ؛ « فكان الطالب إذا أراد أن
يطالع تاريخاً احتاج إلى مجلدات كثيرة وكتب متعددة
مع ما فيها من الإخلال والإملال ! ! » .

وهكذا يبدو لنا أن ابن الأثير عندما شرع فى
كتابة تاريخه الكامل كان غير راض عن المنهج الذى
اتبعه غيره من المؤرخين المسلمين ، وإنما حاول أن
يقف على الأخطاء التى وقع فيها أولئك المؤرخون وأن

يتجنب هو تلك الأخطاء في كتابته . وبعبارة أخرى فان ابن الأثير لم يكن مرتجلاً في كتابته ، ولم يقف عن حد محاكاة من سبقه من المؤرخين والنقل عنهم ، وإنما أراد أن يضع لنفسه منهجاً جديداً في كتابة التاريخ ، وهذا هو السر في المكانة الخاصة والأهمية الواضحة التي يحظى بها كتاب الكامل في التاريخ عند المشتغلين بالتاريخ على مر العصور .

ولكن إلى أي حد نجح ابن الأثير في تحقيق أهدافه وإلى أي مدى استطاع أن يتجنب العيوب التي أخذها على غيره من كتاب التاريخ ؟ الواقع إن المشتغل منا بدراسة التاريخ يرجع إلى مراجع التاريخ الإسلامي حتى القرن السابع للهجرة ، فيلمس في كتاب الكامل بالذات عدة خصائص ومميزات قد لا يجدها مكتملة في كتاب آخر من المراجع التي يرجع إليها ، وعندئذ لا يسعه سوى أن يشهد لابن الأثير بالبراعة والتجديد بل الأصالة في منهج البحث ومنهج كتابة التاريخ . أما هذه المميزات التي يمتاز بها كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير فاستطيع أن أجملها فيما يلي :

أولاً : الدقة وتحري الحقيقة فيما يكتب ، هذا مع اتصاف كتابة ابن الأثير بالتماسك والتركيز والبساطة . والملاحظ على كتب التاريخ المعاصرة والسابقة ، والتي أخذ عن بعضها ابن الأثير ، الاسهاب وكثرة الروايات والأسانيد . فالحدث الواحد له أكثر من رواية وأكثر من قصة ، كل رواية منها وكل قصة رواها شخص معين . ولا شك في أن هذه الطريقة في كتابة التاريخ تجعل الباحث اليوم يقع في حيرة ويضيق كثيراً من الوقت والجهد وربما اعتراه الملل والسأم . ولكن ابن الأثير حذف الأسانيد واكتفى بالرواية الواحدة . وبعبارة أخرى فان ابن الأثير تحمل هو عناء مقارنة الروايات والأسانيد حتى توصل إلى الحقيقة في كل حدث من الأحداث ، ثم ذكر لنا الخلاصة الأقرب إلى الصواب ، وبذلك كفانا مؤونة الحيرة بين عدد كبير من

الروايات لا ندرى أيها تختار وأيها أقرب إلى الصواب . وفي ذلك يقول ابن الأثير نفسه « فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها ، وأودعت كل شيء مكانه ، فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً على ما تراه » .

ثانياً : راعى ابن الأثير في كتابه الكامل التوازن بين أقاليم العالم الإسلامي ، فلم تصرفه الأحداث التي ألت بالمشرق عما كان يجري بالمغرب من تطورات ، ولم يحدث أنه انساق وراء حدث خطير في المغرب فنسى ذكر أخبار المسلمين في الهند أو فيما وراء النهر . وبذلك جاء كتاب الكامل مرجعاً شاملاً وافيّاً جامعاً لأكبر قدر من أخبار العالم الإسلامي - بوجه خاص - في المشرق والمغرب .

ثالثاً : والمعروف أن كتابة التاريخ في العصور القديمة والوسطى امتلأت بالقصص الخرفاني التي لا يستسيغها العقل أو المنطق . ولكن ابن الأثير لم يكن مثل غيره من كتاب التاريخ يهتم ما يصادفه من أخبار ويدون كل ما يقرأه أو يسمعه من قصص ، بل عرف كيف ينتقى المادة الصالحة وكيف يختار غذاء النافع : وهو في ذلك يقول عن نفسه إنه لم يكن « كالحابط في ظلماء الليالي ، ولا كمن يجمع الحصباء والآلى » .

رابعاً : اعتمد ابن الأثير في جمع مادته على أدق المراجع وأوثق الكتب . وفي ذلك يقول « على أني لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة ممن يعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحة ما دونوه » . وإذا كان ابن الأثير قد حاول بقدر الامكان أن يأخذ عن المصادر الأصلية أو المعاصرة ، فإنه راعى في نفس الوقت التخصص في كل إقليم أو بلد يورخ له أو يكتب عنه . من ذلك أن ابن الأثير في أخباره عن العراق اعتمد على ابن الجوزي والهمداني ، وفي أخباره عن المغرب أخذ عن ابن شداد الصنهاجي ، وفي أخباره عن الشام

والجزيرة أفاد من كتابات ابن القلانسي والعظيمي . .
وهكذا .

هذه هي المزايا التي تجمعت في كتاب الكامل لابن الأثير ، وهي مزايا كفيّلة بأن تجعله مرجعاً خالداً يستسيغه القارئ ويعول عليه الباحث والمدقق . ولكن هل معنى ذلك أنه ليس ثمة انتقادات يمكن توجيهها إلى ابن الأثير وكتابه الكامل ؟ الواقع إنه يمكن توجيه النقد إلى أي عمل ينهض به البشر . وكتاب الكامل في التاريخ مع ما فيه من حسنات ، لا يتعذر على من يريد التفتيش عن العيوب أن يعثر بين ثناياه عن مثالب بسيطة نجملها فيما يلي :

أولاً : يؤخذ على ابن الأثير أنه لم يكن منصفاً في نظرته إلى بعض الشخصيات المعاصرة . فابن الأثير بالغ في تمجيد الزنكيين وأسرف في الإشادة بهم وإضفاء هالة براقة على أعمالهم ؛ وذلك اعترافاً من ابن الأثير بفضل الزنكيين عليه وعلى بيته وأسرته . وربما دفع هذا الولاء للزنكيين المؤرخ ابن الأثير إلى التغاضي عن بعض أخطائهم وعيوبهم مكتفياً بذكر محاسنهم ومآثرهم . وفي الوقت نفسه لم يستطع ابن الأثير أن يخفى تحامله على صلاح الدين ، فحاول أن يشوه بعض أعماله ويسيء تفسير بعض تصرفاته ، ولم يترك فرصة دون أن يغمز صلاح الدين بطريق مباشر أو غير مباشر ؛ بل لقد بلغ به الأمر أن اتهم صلاح الدين بالأنانية واغتصاب السلطة من أصحابها الشرعيين ، والتخلص من خصومه عن طريق الاغتيال . والواقع إن المؤرخ منا يجد نفسه في حيرة إزاء موقف ابن الأثير من صلاح الدين . وقد حاول بعض المستشرقين وغيرهم تفسير ذلك الموقف في ضوء أطماع ابن الأثير فقالوا إن هذا المؤرخ كان يطمع في أن يحظى بمكانة خاصة عند صلاح الدين . ولكنه لم يبلغ ما تمناه . ولكن دراستنا لحياة ابن الأثير وأخلاقه لا تترك مجالاً للشك في أن ابن الأثير لم يطمع أبداً في الحصول على منصب أو وظيفة .

وكان في استطاعة ابن الأثير — بحكم ما وصل إليه من مكانة عند صاحب الموصل — أن يحصل على بعض الوظائف ، ولكن ليس هناك دليل واحد يثبت أن ابن الأثير ولي منصباً في الموصل ، وكل ما هنالك هو أنه أوفد في سفارات إلى بغداد وغيرها .

فاذا كان الأمر كذلك ، فما السر في موقف ابن الأثير من صلاح الدين ؟ إن الأمر في نظري لا يعدو شيئاً واحداً ، هو أن ولاء ابن الأثير للزنكيين دفعه إلى النفور من صلاح الدين . فابن الأثير — وهو الرجل الوفي الخالص الذي لم يترك فرصة تمر دون أن يعترف بفضل الزنكيين عليه وعلى أسرته — عز عليه أن لا يبقى ملك الدولة الواسعة التي أقام دعائمها نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي والتي امتدت من الفرات إلى النيل ، عز على ابن الأثير أن لا يبقى ملك هذه الدولة في قبضة أبناء نور الدين ، وأن يتجرأ رجل مثل صلاح الدين على سيده نور الدين في حياته ويستولى على دولته بعد وفاته . ولم يشفع لصلاح الدين عند المؤرخ ابن الأثير أن نور الدين لم يترك من بعده ذرية قوية تستطيع أن تحافظ على المكاسب التي حققها الزنكيون للمسلمين ، وأن صلاح الدين كان الرجل القوي الذي استطاع أن يستأنف سياسة الجهاد ضد الصليبيين على أوسع نطاق حتى باغت تلك السياسة ذروتها على يديه في عصر الحروب الصليبية .

ومهما يكن من أمر ، فإننا عندما نقول إن ابن الأثير بالغ في تمجيد الزنكيين وأسرف في كراهيته لصلاح الدين ، ينبغي أن نتذكر أن ابن الأثير بشر ، وأن المؤرخ مهما يتوخى الصدق والحق فإن له قلباً يجعله يحب كما يحب البشر ويكره مثلما يكره البشر .

ثانياً : يرى بعض الكتاب أن ابن الأثير أسرف في النقل عن السابقين والمعاصرين له من المؤرخين . والواقع إنه كان لازماً على مؤرخ مثل ابن الأثير عاش في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة أن

يبحث عن مصادر يستقى منها معلوماته عن القرون الأولى . لذلك لا عيب على ابن الأثير إذا كان قد اعتمد على بعض كتب السابقين ، لا سيما وأنه نفسه يعترف بذلك في صراحة تامة وأمانة علمية كاملة فيقول ما نصه : « ابتدأت بالتاريخ الكبير الذى صنفه الإمام أبو جعفر الطبرى ، إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه والمرجوع عند الاختلاف إليه . . . فإما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعها ، وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبرى ما ليس فيه ، ووضعت كل شىء منها موضعه . . . » .

فابن الأثير إذن اعتمد في الأجزاء السبعة الأولى من كتابه الكامل على تاريخ الطبرى وأضاف إلى ما نقله عن الطبرى معلومات أخرى أخذها عن ابن الكلبي والبلاذرى والمسعودى وغيرهم ، وهذا كله لا يقلل من قيمة عمل ابن الأثير ولا ينتقص من أمانته العلمية ما دام قد اعترف بما فعل من ناحية وما دام أنه لم ينقل نقلاً حرفياً عن السابقين ، وإنما حرص دائماً — كما سبق أن أشرنا — على أن يقارن ويتمعن ويستخلص ويكمل الرواية التى ذكرها مرجع بأخرى وردت في مرجع آخر ، وفي النهاية يقدم لنا في كتابه الكامل زبدة أفكاره وقراءاته ودراساته الطويلة .

هذا عن الأجزاء السبعة الأولى من كتاب الكامل ، أما الأجزاء الأخيرة ، فإن بعض الكتاب يأخذ على ابن الأثير اعتماده على عماد الدين الكاتب ، وخاصة فيما كتبه العماد في كتابه « البرق الشامى » . ويستدل هذا الفريق من الكتاب على رأيهم بالتطابق الشديد بين ما كتبه ابن الأثير عن أخبار الحروب الصليبية وما كتبه العماد في البرق الشامى . ولكن هذا التشابه بين ابن الأثير والعماد لا يحتم أن الأول أخذ عن الثانى ، لأن الملاحظ في كتابة التاريخ في العصور الوسطى أن القصة الواحدة كانت تنتقل أحياناً عن طريق واحد إلى عدد من الكتاب ، فتأتى صورتها واحدة في عدة

كتب . ويقول المستشرق جب إن ابن الأثير كان يكتب بأسلوبه الخاص فيقرأ ويسمع ، ثم يصيغ الأخبار التى جمعها بطريقة الخاصة وبناء على ذلك فإننا لا نستطيع أن نوكد أنه نقل بعض أخباره نقلاً حرفياً عن العماد أو غيره . وإذا فرض أن ابن الأثير اعتمد على العماد في نقل بعض أخباره ، فلا ضير في ذلك لأن هذه كانت روح العصر ، والمؤرخ أبو شامة في كتابه الروضتين أخذ كثيراً عن العماد ، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يقلل من قيمة كتاب الروضتين في دراسة تاريخ الشرق الأدنى في العصور الوسطى . وكان الكتاب والعلماء في تلك العصور يعتبرون أنفسهم إخوة متحابين في سبيل خدمة العلم والدين ، وما دام الأمر كذلك فإن نقل أحدهم قصة عن الآخر لا يعدو في نظرهم أن يكون نوعاً من التعاون المرغوب فيه .

ومهما يكن من أمر ، فإننا إذا حكمنا على ابن الأثير وكتابه الكامل ، وجب علينا أن نحكم عليه بروح العصر الذى عاش فيه ذلك المؤرخ لا العصر الذى نعيش فيه نحن . ومن الظلم أن نطلب من مؤرخ عاش في العصور الوسطى أن يكون على نفس المستوى الفكرى والعلمى الذى تتطلبه العصور الحديثة في القرن العشرين .

أما عن طريقة ابن الأثير في معالجته للأحداث ، فالمعروف أن الطريقة الشائعة في كتابة التاريخ في العصور الوسطى هى الطريقة الحولية ، بمعنى أن يعالج التاريخ على شكل سنوات فيتناول المؤرخ الأحداث التى حدثت في عام واحد حتى إذا ما انتهى من سردها والتعليق عليها انتقل إلى السنة التالية . وقد يستغرق الحدث الواحد بضعة أعوام ، فعندئذ نراه موزعاً بين عدة سنوات فلا يذكر منه المؤرخ في السنة الواحدة إلا ما حدث منه في غضون تلك السنة ، وبعد ذلك ينتقل إلى حدث آخر وثالث من أحداث السنة ، حتى إذا ما انتهت السنة واستهل سنة جديدة عاد إلى تكملة الحدث

الأول بالقدر الذي تم منه في السنة الجديدة . ومع أن ابن الأثير انتقد هذه الطريقة في كتابة التاريخ لأنها تشتت الحدث الواحد بين عدة أجزاء لا تربطها رابطة من الكتاب ، إلا أنه لم يكن في وسعه أن يتخلى عن طريقة السنوات أو الحوليات في كتابة تاريخه الكامل . وقد نجح ابن الأثير في علاج العيب الرئيسي الناجم عن كتابة التاريخ على شكل سنوات ، وذلك بأن حاول بقدر الإمكان أن يذكر الحدث الواحد في مكان واحد حتى ولو كان حدوثه من الناحية الزمنية قد استغرق بضعة أعوام . وفي ذلك يقول ابن الأثير في مقدمة كتابه الكامل ما نصه « ورأيتم أيضاً يذكرون الحادثة الواحدة في سنين ، ويذكرون منها في كل شهر أشياء ، فتأني الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر ، فجمعت أنا الحادثة في موضع واحد وذكرت كل شيء منها في أي شهر أو سنة كانت ، فأنت متناسقة متتابعة ، وقد أخذ بعضها برقاب بعض . »

فاذا تكلم ابن الأثير عن ملك أو حاكم أو خليفة أو أمير فإن أعماله تأتي موزعة حسب ترتيبها الزمني بين سنوات الكتاب . أما إذا كانت الفترة التي حكمها ذلك الحاكم قصيرة « ولم تطل أيامه فإني أذكر جميع حاله من أوله إلى آخره عند ابتداء أمره ، لأنه إذا تفرق خبره لم يعرف للجهل به ! » .

وربما تخللت الأحداث الكبيرة أحداث أخرى صغيرة لا يريد المؤرخ ابن الأثير أن يهملها لبعض وجاهتها ولا يريد أن يحشرها وسط الأحداث الكبار فتفسد عرضها وتشوه تسلسلها، ولذلك اختار ابن الأثير أن يفرد لهذه الأحداث الصغيرة ركناً صغيراً في نهاية كل سنة تحت عنوان « ذكر عدة حوادث » . أما الوفيات ، فقد حرص ابن الأثير على ذكرها في ختام كل سنة ، فيترجم تراجم قصيرة لمن توفي في السنة المؤرخ لها من « مشهورى العلماء والأعيان والفضلاء ؛

وضبطت الأسماء المشتبهة الموثقة في الخط المختلفة في اللفظ الواردة فيه بالحروف ضبطاً يزيل الاشكال ويغنى عن الأنقاط والأشكال » .

وهكذا بذل ابن الأثير جهداً كبيراً في استكمال كتاب الكامل شكلاً وموضوعاً . ويذكر في مقدمته أنه بعد الجهد الكبير الذى نهض به في جمع مادة الكتاب ، انصرف عنه مدة طويلة من الزمن « لحوادث تجددت وقواطع توالى وتعددت » . وكلما ألح عليه خلانه وجلساؤه في سماع هذا الكتاب منه لبرووه عنه اعتذر بعدم الفراغ منه ؛ إلى أن آن الأوان لراجع مسوداته وعندئذ « ألقيت عنى جلباب المهمل وأبطلت رداء الكسل وأحضرت الدواه وأصلحت القلم وقلت هذا أوان الشد فاشتدى زيم ، وجعلت الفراغ أهم مطلب ؛ وإذا أراد الله أمراً هياً له السبب ، وشرعت في اتمامه مسابقاً . . . » :

على أن ابن الأثير لا يريد أن ينساق وراء الغرور ، فحاول ألا يبالغ في قيمة عمله الضخم ، وقالها في لهجة تواضع العلماء « على أنى مقرر بالتقصير ، فلا أقول إن الغلط سهو جرى به القلم بل أعترف بأن ما أجهل أكثر مما أعلم » . وفيما يلي عرض سريع للمادة التي حواها كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير :

بدأ ابن الأثير الجزء الأول من كتابه الكامل بكلمة قصيرة عن نشأة التاريخ في الإسلام ، ثم انتقل إلى خلق آدم وتبع الأنبياء حتى وصل إلى إبراهيم فتكلم عن عمارة البيت الحرام بمكة ثم عن أولاد إبراهيم وأزواجه . وبعد أن تكلم ابن الأثير عن بعض الشعوب القديمة مثل الفرس وبني إسرائيل والإسكندر ذى القرنين ، انتقل إلى ولادة المسيح ونبوته ومعجزاته وأخباره . وبعد ذلك انتقل ابن الأثير إلى ذكر أخبار الروم ، فأتى بأخبار دقيقة عن الإمبراطور قسطنطين الأول أو العظيم لا سيما الحروب بينه وبين غريمه مكسنتيوس الذى يسميه ابن الأثير مقسيانوس ، وعن

من كتابه بأخبار فتح مصر على يد عمرو بن العاص سنة
عشرين للهجرة :

ويستأنف ابن الأثير في الجزء الثالث من كتابه
الكلام عن عهد الخليفة عمر حتى وفاته سنة ثلاث
وعشرين للهجرة ، وعندئذ ينتقل إلى عهد الخليفة
عثمان بن عفان . وتستمر حركة الفتوح الإسلامية ، في
عهد عثمان بن عفان ، فيتبع ابن الأثير سير الفتوح في
خراسان وكرمان وسجستان من ناحية وفي إفريقية
والأندلس من ناحية أخرى ؛ فضلاً عن الغزوات
البحرية مثل فتح جزيرة قبرس سنة ثمان وعشرين
وموقعة الصواري البحرية سنة إحدى وثلاثين للهجرة .
وفي الوقت نفسه لم يغفل ابن الأثير التيارات الداخلية ،
وأهمها سياسة الخليفة عثمان في عزل الولاة وتعيين
غيرهم من ذوى قرباه ، وهى السياسة التى انتهت
بأثارة الفتنة الكبرى في جوف الدول الإسلامية ،
وهى الفتنة التى بدأت بمقتل عثمان وقيام على بن طالب
في الخلافة ، فانهت بمقتل على بن أبى طالب وقيام
الدولة الأموية . ويختتم ابن الأثير الجزء الثالث من
كتابه الكامل بأخبار خلافة معاوية بن أبى سفيان .

ثم يبدأ ابن الأثير الجزء الرابع بسنة ستين للهجرة
وأول ما فيها وفاة معاوية بن أبى سفيان . وبعد ذلك
يتكلم عن الخلفاء الأمويين واحداً بعد آخر ، ويشير
إلى أحوال الدولة الإسلامية في المشرق والمغرب ،
وما كان من أمر مقتل الحسين رضى الله عنه واشتداد
ثورات الخوارج في المشرق ، هذا كله مع عدم إغفال
أخبار الغزوات الإسلامية وخاصة في أرض الروم
وجزر البحر المتوسط ، فضلاً عن فتح الأندلس سنة
اثنتين وتسعين للهجرة على عهد الخليفة الوليد بن
عبد الملك . وأخيراً يختتم ابن الأثير الجزء الرابع من
كتاب الكامل بذكر حوادث سنة خمس وتسعين
لهجرة وما كان فيها من وفاة الحجاج بن يوسف :

أسباب اعتناق قسطنطين المسيحية وتأسيس مدينة
القسطنطينية . كذلك أشار ابن الأثير إلى أن الإمبراطور
قسطنطين هو أول من دعا لعقد مجمع مسكونى في
المسيحية ، وهو مجمع نيقية الذى اسماه ابن الأثير
« السهودس الأول » ولفظ سهودس مأخوذ بوضوح
من لفظ Synod بمعنى مجمع دينى في المسيحية .

وهكذا يستمر ابن الأثير في رواية كثير من
الأخبار الطريفة الواقعية عن الروم حتى يصل إلى
هرقل ، وبه تبدأ الطبقة الثالثة من ملوك الروم بعد هجرة
الرسول محمد عليه الصلاة والسلام . وبعد أن يتناول
ابن الأثير بعضاً من أخبار العرب في الجاهلية ،
وعلاقتهم بالفرس من ناحية وبالروم من ناحية أخرى
وبالحبشة من ناحية ثالثة ، يختتم الجزء الأول من كتابه
الكامل بالكلام عن أيام العرب في الجاهلية .

أما الجزء الثانى فيستهله ابن الأثير بنسب النبي محمد
عليه الصلاة والسلام وذكر أخبار آبائه وأجداده ، ثم
يتناول السيرة النبوية قبل الوحى وبعده . فاذا وصل ابن
الأثير إلى ذكر هجرة الرسول ، بدأ لأول مرة يتبع
نظام السنوات في تأريخه للأحداث ، فيذكر ما كان
من أخبار في أول سنة من الهجرة ، ثم يذكر العبارة
المألوفة « ثم دخلت السنة الثانية من الهجرة » . . . وهكذا
ينتقل ابن الأثير بالتأريخ من سنة لأخرى فيذكر أخبار
الغزوات والسرايا وفتح مكة وحجة الوداع . وبعد أن
يتوقف قليلاً ليذكر عدد غزوات الرسول وحجاته
وصفاته الجسمانية والخلقية وأسماءه وأزواجه وسراريه
وأولاده ومواليه . . . ينتقل إلى سنة إحدى عشرة
لهجرة فيستهلها بمرض الرسول عليه الصلاة والسلام
وفاته ، وما أعقب ذلك من خلافة أبى بكر . ويتكلم
ابن الأثير عن أهم الأحداث في خلافة أبى بكر ، مثل
حرب الردة وحركة الفتوح الإسلامية ضد الفرس
والروم حتى وفاة أبى بكر سنة ثلاث عشرة للهجرة ،
فينتقل ابن الأثير إلى خلافة عمر ، ويختتم الجزء الثانى

أما الجزء الخامس فيبدأه ابن الأثير بحوادث سنة ست وتسعين للهجرة ، وفيها مات الخليفة الوليد بن عبد الملك وتولى الخلافة سليمان . ومع استمرار حركة الفتوح الإسلامية في ذلك الدور ، إلا أن الأحداث التي يذكرها ابن الأثير في عهد الخليفة سليمان ثم عمر بن عبد العزيز ، وحركات الخوارج والعلويين وغيرهم ، تعطينا فكرة واضحة عن سوء أوضاع الدولة الأموية . وقد ذكر ابن الأثير هذه الأحداث حتى كانت سنة مائة للهجرة ، فأشار إلى ابتداء الدعوة العباسية . وإذا كان ابن الأثير قد استمر بعد ذلك في تتبع أخبار الدولة الأموية في أواخر أيامها ، فإنه بين ثنايا هذه الأخبار لم يغفل الإشارة إلى العباسيين وازدياد دعوتهم ، حتى ذكر في سنة أربع وعشرين ومائة عنواناً عن ابتداء أمر أبي مسلم الخراساني ، ثم انتهى الأمر في سنة اثنتين وثلاثين ومائة بذكر ابتداء الدولة العباسية . وهكذا يستأنف ابن الأثير الكلام في أناة عن الخلفاء العباسيين وأعمالهم الداخلية والخارجية ، مع عدم اغفال بقية التيارات في العالم الإسلامي مثل أحوال الأندلس وذنول عبد الرحمن بن معاوية إليه وغزو المسلمين جزيرة صقلية . . حتى يختتم الجزء الخامس بسنة أربع وخمسين ومائة .

ثم يأتي الجزء السادس من كتاب الكامل ، وهو يبدأ بسنة خمس وخمسين ومائة وينتهي بحوادث سنة سبع وعشرين ومائتين . ومعنى ذلك أنه يعالج العصر الذهبي للدولة العباسية ، ففيه تكملة لعهد الخليفة المنصور ، ثم ذكر لعهود المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتمد والواثق .

ولا يستطيع ابن الأثير أن ينتهي من عهد الواثق في الجزء السادس فيكمل كلامه عن ذلك العهد في الجزء السابع الذي يستهله بسنة ثمان وعشرين ومائتين . وبعد الواثق يعالج ابن الأثير أوضاع العالم الإسلامي في عهود المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي

والمعتمد والمعتضد والمكفي من الخلفاء العباسيين . وفي تلك الفترة تشهد الأخبار التي أوردها ابن الأثير على مدى اضمحلال الدولة العباسية واختلال أوضاعها ، فكثرت الحركات الانفصالية ، والثورات في أرجاء الدولة ، واستأنف الروم اغاراتهم على شواطئ مصر ، واشتدت أخطار الزنج والقرامطة . . . إلى غير ذلك من الأحداث التي فصلها ابن الأثير في الجزء السابع .

أما الجزء الثامن من كتاب الكامل فيبدأه ابن الأثير بسنة خمس وتسعين ومائتين للهجرة ويختتمه بسنة تسع وستين وثلثمائة للهجرة ؛ وتشمل هذه الفترة عهود الخلفاء العباسيين المقتدر والظاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع والطائع . واستمرت الخلافة العباسية في ذلك الدور في تدهور مستمر نتيجة لضعف الخلفاء من ناحية واشتداد الانقسامات والخلافات الداخلية في أجزاء الدولة من ناحية ثانية . وكانت النتيجة أن تحول الروم من الدفاع إلى الهجوم ، فيروى ابن الأثير كيف اندفعت جيوش الروم شرقاً حيناً تهدد أرض الجزيرة وأحياناً تهدد أرض الشام ، حتى استولى الروم على أنطاكية سنة تسع وخمسين وثلثمائة ثم أحرقوا حماة وحمص ؛ وبذلك عظمت شوكة الروم « وخافهم المسلمون في أقطار البلاد » على قول ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وثلثمائة . وزاد من خطورة الموقف داخل العالم الإسلامي في المشرق ما يرويه ابن الأثير من نجاح الفاطميين في تأسيس دولة لهم امتدت من شمال إفريقيا إلى مصر وبذلك قامت خلافة علوية قوية في القاهرة تنافس الخلافة العباسية السنية في بغداد .

بل إن الانقسام المذهبي بين صفوف المسلمين ظهر على أشده في بغداد ذاتها ، فيروى ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وستين وثلثمائة كيف أن بعض أهل السنة في بغداد تسببوا في إحداث حريق ضخم في الكرخ - مركز الشيعة - « فاحترق فيه سبعة عشر ألف إنسان وثلثمائة

دكان وكثير من الدور وثلاثة وثلاثون مسجداً ومن الأموال ما لا يحصى ! ! » .

ويستمر ابن الأثير في الجزء التاسع من كتابه الكامل في سرد أخبار انحلال الخلافة العباسية ، مع عدم اغفال بقية التطورات الرئيسية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي مشرقه ومغربه . وأهم ما يصوره ابن الأثير في الجزء التاسع الذي يبدأ بسنة سبعين وثلثمائة وينتهي بسنة خمسين وأربعمائة للهجرة هو ازدياد سيطرة سلاطين بني بويه على الخلافة العباسية ، وتعصب بني بويه للمذهب الشيعي مما ترتب عليه ازدياد الفتنة التي عبرت عن نفسها بثورة البساسيري . ولم يسع الخليفة القائم العباسي سوى أن يستنجد بالسلاجقة السنين لانقاذ نفسه وخلافته ، مما ترتب عليه إحلال السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الخلافة العباسية .

وبالجزء العاشر من كتاب الكامل لابن الأثير يبدأ هذا الكتاب يكتسب أهمية خاصة ؛ لأنه إذا كان ابن الأثير قد اعتمد فيما كتبه في الأجزاء التسعة الأولى على ما استمداه من الطبري وغير الطبري من المؤرخين السابقين ؛ فإن ابن الأثير يؤرخ في الثلاثة الأجزاء الأخيرة من كتابه الكامل لأحداث قريبة سمع بعضها عن قرب ولمس بعضها عن قرب ، بل وشارك في بعضها عن قرب أيضاً . وثمة أهمية أخرى للأجزاء الثلاثة الأخيرة من كتاب الكامل ، هي أن ابن الأثير عالج فيها عصرًا من أخطر عصور التاريخ الإسلامي بوجه عام والشرق الأدنى بوجه خاص ؛ وأعنى به عصر الحركة الصليبية ، أو على وجه التحديد المرحلة الحاسمة النشيطة في تلك الحركة .

وأهم ما يسترعى نظرنا في الجزء العاشر الذي يبدأ بسنة إحدى وخمسين وأربعمائة وينتهي بسنة سبع وعشرين وخمسمائة ، هو ازدياد قوة السلاجقة الذين أمدوا المسلمين في المشرق بروح جديدة ودماء جديدة ، جعلت الروم مرة أخرى يتحولون من الهجوم إلى الدفاع . وقد أمدنا

ابن الأثير في الجزء العاشر من كتابه الكامل بمعلومات طيبة عن أحوال بلاد الشام — المسرح الرئيسي للحروب الصليبية — قبيل مجيء الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق . وفي الوقت نفسه لم يغفل ابن الأثير أخبار المسلمين في المغرب والأندلس وصقلية ففراه في حوادث سنة ثمان وسبعين وأربعمائة يعيب على المسلمين في الأندلس تفرقهم وعدم وحدتهم حتى « صاروا مثل ملوك الطوائف ، فحينئذ طمع الفرنج فيهم وأخذوا كثيراً من ثغورهم » . ويظهر ابن الأثير أسفه لاستيلاء الفرنج في تلك السنة على طليطلة من المسلمين ، وهي المدينة التي وصفها بأنها « من أكبر البلاد وأحصنها ! » كذلك وصف ابن الأثير جهود ملك المرابطين يوسف بن تاشفين في إنقاذ المسلمين في الأندلس من ضغط الفرنج ، وتكلم عن موقعة الزلاقة سنة تسع وسبعين وأربعمائة . وفي حوادث سنة أربع وثمانين وأربعمائة يذكر ابن الأثير بالتفصيل كيف انتزع الفرنج جزيرة صقلية من المسلمين . ولم يفت ابن الأثير أن يشير إلى سياسة ملوك النورمان تجاه المسلمين والحضارة الإسلامية في صقلية ، فيحكى عن روبرت ملك النورمان أنه حاكى المسلمين في نظمهم « وسلك طريق المسلمين من الجنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك ، وخالف عادة الفرنج فانهم لا يعرفون شيئاً منه ، وجعل له ديوان المظالم ترفع إليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده ، وأكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فأحبوه . . . » .

ويفصل لنا ابن الأثير أوضاع المسلمين في المشرق عند وصول الحملة الصليبية الأولى حتى يصل إلى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، وعندئذ يستهل أخبار تلك السنة بذكر ملك الفرنج أنطاكية . ومع بداية أخبار الحروب الصليبية لا يسعنا سوى أن نتوقف قليلاً أمام حقيقة كبرى هي أن مؤرخنا ابن الأثير يعتبر قطباً من أعظم أقطاب مؤرخي الحروب الصليبية ؛ ليس

وهذا الحبك المحكم بين أطراف الحركة الصليبية في المغرب والمشرق ، لم يتوصل إليه أحد من المؤرخين المعاصرين غير ابن الأثير ، وهو يدلنا على سعة أفق هذا المؤرخ وعلى أنه كان محيلاً للأحداث قبل أن يكون سارداً لها .

وبمثل هذه الروح وسعة الأفق يستمر ابن الأثير في سرد أخبار الحملة الصليبية الأولى في القرن العاشر ، وما أصاب تلك الحملة في أراضي الدولة البيزنطية من عقبات ، ثم استيلاء الصليبيين على بعض مدن الشام والجزيرة حتى استولوا على بيت المقدس وقتلوا في المسجد الأقصى « ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف » .

أما الجزء الحادى عشر من كتاب الكامل فيستهله ابن الأثير بتممة سنة سبع وعشرين وخمسة ثم يستأنف سير الأحداث حتى يختتم ذلك الجزء بذكر حوادث سنة ثلاث وثمانين وخمسة . وأهم أحداث تلك الفترة هي ازدياد نفوذ البيت الزنكى ، ونجاح نور الدين محمود في اتمام الجبهة الإسلامية المتحدة الممتدة من الفرات إلى النيل ، ثم نجاح صلاح الدين في أن يرث سيده نور الدين في دولته الواسعة ويحافظ على وحدة تلك الجبهة لبدأ حركة الجهاد ضد الصليبيين على نطاق واسع . وجميع تلك الأحداث يتتبعها ابن الأثير في الجزء الحادى عشر من كتابه الكامل في دقة بالغة ، مع حرص على التعليق عليها تعليقاً قوياً مناسباً يدل على يقظته وانفعاله بالأحداث التى يؤرخ لها . ولم يقلل من دقة ابن الأثير وأمانته العلمية في هذا الجزء إلا ما يلاحظه الباحث المدقق من تحامل على صلاح الدين ، كما سبق أن أشرنا . فابن الأثير عندما يتكلم عن قيام صلاح الدين في ملك مصر في حوادث سنة أربع وستين وخمسة ، يقول إن صلاح الدين أنشأ هذه الدولة وعظمها « وصار كأنه أول لها » وفي عبارة « كأنه » هذه نوع من الغمز

فقط لأنه شاهد وعاصر حلقة من أهم حلقات تلك الحروب ، بل لأنه شارك فعلاً في تلك الحروب ، فكان ضمن عساكر الموصل الذين عملوا تحت راية صلاح الدين سنة ٥٧٤ هـ . ثم إن أهمية ابن الأثير بن مؤرخى الحروب الصليبية لا ترجع فقط إلى دقته فيما سرده وأمانته فيما سطره ، بل أيضاً لأنه فيما ذكره من أحداث لم يكن مجرد سارد ، بل كان في كثير من الحالات شارحاً للأحداث ناقداً لما لم يعجبه منها ، حريصاً على أن يثبت رأيه الخاص في كثير من المواضع . وتنضح سعة أفق ابن الأثير وبعد نظره وحصافة رأيه في أنه لم ينظر إلى الحروب الصليبية — مثل غيره من المؤرخين — نظرة ضيقة ، ويعتبرها مجرد هجمات قام بها الفرنج على بلاد المسلمين في الشرق الأدنى ، وإنما اعتبرها حركة شاملة أراد بها الأوروبيون المسيحيون تطويق العالم الإسلامى مغربه ومشرقه . وبعبارة أخرى فان ابن الأثير لم يفصل بين هجمات الفرنج على الشام في أواخر القرن الخامس للهجرة وبداية هجومهم قبل ذلك بسنوات قليلة على المسلمين في صقلية والأندلس وإنما رأى أن جميع تلك الهجمات التى تعرض لها المسلمون في المغرب والمشرق إنما هى أطراف لحركة واحدة ضخمة شاملة .

انظر إلى ابن الأثير وهو يستهل كلامه عن الحملة الصليبية الأولى ، واستيلاء الصليبيين على أنطاكية ، سنة إحدى وتسعين وأربعمائة بالعبارة الآتية : « كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ؛ فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس وقد تقدم ذكر ذلك . ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها — وقد ذكرته أيضاً — وتطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم ، ثم ملكوا غيره على ما تراه ، فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام » .

لا يخفى على الباحث المدقق . وبعد ذلك يتعجب ابن الأثير ويقول إن الملك بعد وفاة صلاح الدين لم يبق في أعقابه وإنما انتقل إلى أعقاب أخيه العادل . ولا يتحرج ابن الأثير من أن يعلق على هذه الظاهرة بأنها عقوبة الله لأن الحاكم الذي « يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فلهذا يحرمه الله أعقابه ومن يفعل ذلك من أجلهم عقوبة له ! » . وهكذا أظهر ابن الأثير صلاح الدين في صورة الرجل الآثم المغتصب الذي يستحق عقوبة الله ! بل إن ابن الأثير لا يبالي بآتهام صلاح الدين بالتآمر على قتل ابن عمه ناصر الدين محمد بن شريكه ، وذلك في حوادث سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . وبدلاً من أن يثني ابن الأثير على جهود صلاح الدين في حركة الجهاد ، نراه يتصيد الفرص لنقده ، فيتهمه بعدم الحزم والتفريط والتساهل ويقول إنه المشغول عن عدم استطاعة المسلمين الاستيلاء على مدينة صور لأنه ترك البقايا الصليبية بعد حطين تخرج آمنة إلى صور ؛ ثم يعقب على ذلك كله في حوادث سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بعبارة « إن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار ، فلئن يعجز حازماً خسير له من أن يظفر مفروطاً مضيقاً للحزم » .

وعلى هذا النحو يمضي ابن الأثير حتى نهاية الجزء الحادى عشر من كتابه يسرد أخبار صلاح الدين والجهاد ، وهو في الوقت نفسه يتابع كل حدث هام يتصل بالخلافة العباسية أو بالسلاجقة أو بالمسلمين في المغرب والأندلس والهند ، أو بالروم وعلاقتهم بالمسلمين من ناحية وبالصليبيين من ناحية أخرى .

أما الجزء الثانى عشر والأخير من كتاب الكامل ، فيبدأه ابن الأثير بسنة أربع وثمانين وخمسمائة ويختتمه بسنة ثمان وعشرين وستمائة . وهو يتتبع في هذا الجزء أخبار صلاح الدين وانتصاراته على الصليبيين لا سيما

فما يتعلق بالحملة الصليبية الثالثة ، وما كان بين صلاح الدين وريتشارد من مصادمات وعلاقات . ولم يكف ابن الأثير في هذا الجزء أيضاً عن محاولة آتهام صلاح الدين ، فاتهمه في حوادث سنة ثمان وثمانين وخمسمائة هجرية بأنه هو الذى دبر مقتل كونراد دى مونتفرات الذى رشحه أمراء الصليبيين ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية . والغريب أن ابن الأثير هو المؤرخ الوحيد الذى وجه هذه التهمة إلى صلاح الدين ، بل لقد آتهمه أيضاً بتدبير مؤامرة لقتل الملك ريتشارد نفسه ، في الوقت الذى تجمع المراجع على أن صلاح الدين أرسل إلى خصمه ريتشارد أثناء مرضه الأطباء والفاكهة والماء المثلج ! !

على أنه إذا كان ابن الأثير قد تحامل على صلاح الدين في حياته فإنه لم يملك سوى أن يترحم عليه بعد وفاته بكلمة طيبة ذكرها في حوادث سنة تسع وثمانين وخمسمائة فقال « وكان رحمه الله كريماً حلماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه » .

ويتابع ابن الأثير أخبار المسلمين في المشرق والمغرب بعد صلاح الدين ، وما آل إليه أمرهم من تفكك في الوقت الذى تعرضوا لهجمات الصليبيين من الغرب وهجمات التتر من الشرق الأمر الذى جعل المؤرخ ابن الأثير يرسل زفرة عميقة عبر عنها قلمه في حوادث سنة سبع عشرة وستمائة فيقول « لم ينل المسلمين أذى وشدة مذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن . هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها . والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا إلى مصر فلكوا مثل دمياط وأقاموا فيها . ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم

عنها ولا اخراجهم منها ؛ وباقى ديار مصر فى خطر .
فانا لله ولانا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلی العظیم » .

* * *

وبعد ، فهذا عرض موجز لكتاب الكامل فى
التاريخ لابن الأثير ، ومنه يتضح أن ابن الأثير يحتل
مكانة خاصة بارزة بين فطاحل المؤرخين المسلمين ،
وأن كتابه الكامل يعتبر دائرة معارف ضخمة فى
التاريخ الإسلامى حتى سنة ٦٢٨ هـ ، فضلاً عن أنه
يعتبر مرجعاً أصيلاً من مراجع الحروب الصليبية .

فلا عجب إذا فطن المستشرقون منذ وقت مبكر إلى
خطورة كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير فنشره
تورنبرج وطبعه فى ليدن فى ١٢ مجلداً وفرغ من طبعه
بأكمله سنة ١٨٧٦ . كذلك اقتبس منه المستشرق دى
سليمن كل ما جاء فيه من أخبار عن الحروب الصليبية
ونشرها فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية مع
ترجمة فرنسية للمتن العربى وطبع فى باريس سنة
١٨٨٧ . أما فى مصر فقد طبع كتاب الكامل عدة
طباعات ، أشهرها طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م)
وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى كتابة هذا البحث .

شواهد ومقتطفات من كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير

يقول ابن الأثير فى مقدمة كتابه عن التاريخ
وأهميته : « ولقد رأيت جماعة ممن يدعى المعرفة
والدراية يظن بنفسه التبهر فى العلم والرواية يحتقر
التواريخ ويزدريها ويعرض عنها ويلغها ، ظناً منه أن
غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار ونهاية معرفتها
الأحاديث والأسماء . وهذه حال من اقتصر على
القشر دون اللب نظره . . . ومن رزقه الله طبعاً سليماً
وهذه صراطاً مستقيماً علم أن فوائدها كثيرة ومنافعها
الدنيوية والأخروية حجة غزيرة ، وها نحن نذكر
شيئاً مما ظهر لنا فيها . . . »

فأما فوائدها الدنيوية ، فمنها أن الإنسان لا يخفى
أنه يحب البقاء ويؤثر أنه يكون فى زمرة الأحياء ،
فيا ليت شعري أى فرق بين ما رآه أمس أو سمعه وبين
ما قرأه فى الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث
المتقدمين ؛ فإذا طالعتها فكأنه عاصرهم ، وإذا علمها فكأنه
حاضرهم . ومنها أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهى إذا

وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان
ورأوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس فيرونها خلف
عن سلف ، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر
وقبيح الأحذوثة وخراب البلاد وهلاك العباد وذهاب
الأموال وفساد الأحوال ، استقبحوها وأعرضوا عنها
واطرحوها ؛ وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها
وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم وأن بلادهم
وممالكهم عمرت وأموالها درت ، استحسنا ذلك ورغبوا
فيه وثابروا عليه . . . ومنها ما يحصل للإنسان من
التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها ،
فانه لا يحدث أمراً إلا قد تقدم هو أو نظيره ، فيزداد
بذلك عقلاً ، ويصبح لأن يقتدى به أهلاً . ولقد أحسن
القاتل حين يقول :

رأيت العقل عقليْن فطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء الشمس ممنوع

ومنها ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها ، ونقل طريقة من طرائفها ، فرى الأسماع مصغية إليه والوجوه مقبلة عليه والقلوب متأملة ما يورده .

وأما الفوائد الأخروية ، فمنها أن العاقل اللبيب إذا تفكر فيها ورأى تقلب الدنيا بأهلها وتتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها ، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم ، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم ؛ فلم تبق على جليل ولا حقير ، ولم يسلم من نكدها غنى ولا فقير ، زهد فيها وأعرض عنها وأقبل على التزود للآخرة منها . . .

• • •

ويقول ابن الأثير في الجزء الرابع :

ثم دخلت سنة ست وسبعين

ذكر ضرب الدراهم والدنانير الإسلامية .

وفي هذه السنة ضرب عبد الملك بن مروان الدنانير والدراهم ، وهو أول من أحدث ضربها في الإسلام فانتفع الناس بذلك . وكان سبب ضربها أنه كتب في صدور الكتب إلى الروم قل هو الله أحد ، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم مع التاريخ . فكتب إليه ملك الروم : إنكم قد أحدثتم كذا وكذا ، فتركوه وإلا أناكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون . فعظم ذلك عليه ، فأحضر خالد بن يزيد بن معاوية ، فاستشاره فيه ، فقال : حرم دنانيرهم واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى ، فضرب الدنانير والدراهم . . .

• • •

ويقول ابن الأثير في الجزء السادس عن بناء مدينة

سامرا :

ثم دخلت سنة عشرين ومائتين

ذكر بناء سامرا

وفي هذه السنة خرج المعتصم إلى سامرا لبنائها ، وكان سبب ذلك أنه قال إني متخوف هؤلاء الحربية أن

يصيحوا صيحة فيقتلون غلمانى ، فأريد أن أكون فوقهم فان رابى منهم شيء أتيتهم في البر والماء حتى آتى عليهم ، فخرج إليها فأعجبه مكانها . وقيل كان سبب ذلك أن المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك فكانوا لا يزالون الواحد بعد الواحد قتيلا . وذلك أنهم كانوا جفاة يركبون الدواب فيركضونها إلى الشوارع فيصدمون الرجل والمرأة والصبي ، فيأخذهم الأبناء عن دواهم ويضربونهم ، وربما هلك بعضهم ، فتأذى بهم الناس . ثم إن المعتصم ركب يوم عيد ، فقام إليه شيخ فقال : يا أبا اسحق ، فأراد الجند ضربه فمنعهم . فقال يا شيخ مالك ؟ قال : لا جزاك الله عن الجوار خيراً ، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا ، فأيتمت صبياننا وأرملت بهم نسواننا وقتلت رجالنا . والمعتصم يسمع ذلك . فدخل منزله ولم ير راكباً إلى مثل ذلك اليوم ، فخرج فصلى بالناس العيد ولم يدخل بغداد ، بل سار إلى ناحية القاطول ولم يرجع إلى بغداد . قال مسرور الكبير سألني المعتصم : أين كان الرشيد يتزده إذا ضجر ببغداد ؟ قلت بالقاطول ، وقد بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم . وكان قد خاف من الجند ما خاف المعتصم ؛ فلما وثب أهل الشام بالشام وعصوا ، خرج إلى الرقة فأقام بها وبقيت مدينة القاطول لم تستم . ولما خرج المعتصم إلى القاطول استخلف ببغداد ابنه الواثق . . . وكان ابتداء العمارة بسامرا سنة إحدى وعشرين ومائتين .

* * *

وقد ذكرنا أن ابن الأثير يجمع الحوادث الصغيرة التي لا يستحق كل منها عنواناً منفرداً ويجمليها في ختام كل سنة ومن ذلك ما جاء في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين :

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أصاب الحجاج في العود عطش عظيم فبلغت الشربة عدة دنائير ومات منهم خلق كثير . وفيها غدر موسى بالأندلس وخالف على عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس بعد أن كان قد أوفقه وأطاعه ، وسير إليه عبد الرحمن جيشاً مع ابنه محمد . وفيها كان بالأندلس مجاعة شديدة وقحط عظيم ، وكان ابتداءه سنة اثنتين وثلاثين ، فهلك فيه خلق كثير من الآدميين والدواب ويبست الأشجار ، ولم يزرع الناس شيئاً ، فخرج الناس في هذه السنة يستسقون ، فسقوا وزرعوا وزال عن الناس القحط . وفيها ولي إبراهيم بن محمد بن مصعب بلاد فارس . وفيها غرق كثير من الموصل وهلك فيه خلق قيل كانوا نحو مائة ألف إنسان ، وكان سبب ذلك أن المطر جاء بها عظيماً لم يسمع بمثله ، بحيث أن بعض أهلها جعل سطلاً عمقه ذراع في سعة ذراع فامتلاً ثلاث دفعات في نحو ساعة ، وزادت دجلة زيادة عظيمة فركب الماء الربض الأسفل وشاطئ نهر سوق الأربعاء ، فدخل كثيراً من الأسواق ؛ فقليل إن أمير الموصل وهو غانم بن حميد الطوسي كفن ثلاثين ألفاً وبقي تحت الهدم خلق كثير لم يحملوا ، سوى من حمله الماء . وفيها أمر الواثق بترك أعشار سفن البحر . وفيها توفي الحكم بن موسى ومحمد بن عامر القرشي مصنف الصوائف وغيرها ، ويحيى بن يحيى الغساني الدمشقي وقيل سنة ثلاث وثلاثين وقيل غير ذلك ، وأبو الحسن علي بن المغيرة الأثرم النحوي اللغوي أخذ العلم عن أبي عبيدة والأصمعي ، وفيها توفي عمرو الناقد .

* * *

ويقول ابن الأثير في الجزء العاشر من كتاب الكامل :

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

ذكر وقعة الزلافة بالأندلس وهزيمة الفرنج

وقد تقدم ذكر ملك الفرنج طليطلة وما فعله المعتمد بن عباد برسول الأذفونش (ألفونس) ملك الفرنج وعود المعتمد إلى أشبيلية . فلما عاد إليها وسمع مشايخ قرطبة بما جرى ورأوا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج على بعض ، اجتمعوا وقالوا : هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الفرنج ، ولم يبق منها إلا القليل ، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت . وساروا إلى القاضي عبدالله بن محمد بن أدهم فقالوا له : ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة واعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها . وقد رأينا رأياً نعرضه عليك . قال : ما هو ؟ قالوا : نكتب إلى عرب إفريقية ونبدل لهم إذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله . قال نخاف إذا وصلوا إلينا يخربون بلادنا كما فعلوا بإفريقية ويتركون الفرنج ويبعدون بكم ، والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا . قالوا له : فكاتب أمير المسلمين وأرغب إليه ليغير إلينا ويرسل بعض قواده ، وقدم عليهم المعتمد بن عباد وهم في ذلك ، فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه ، فقال له ابن عباد : أنت رسولي إليه في ذلك . فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فأبلغه الرسالة ، وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش . وكان أمير المسلمين بمدينة سبته ، ففى الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس ، وأرسل إلى مراکش في طلب من بقي من عساكره ، فأقبلت إليه تتلو بعضها بعضاً . فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار ، فاجتمع بالمعتمد بن عباد بأشبيلية ، وكان قد جمع عساكره أيضاً وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير ، وقصده المطوعة من سائر بلاد الأندلس . ووصلت الأخبار إلى الأذفونش ، فجمع فرسانه وسار من

طليلة... وكان الفرنج في خمسين ألفاً فتيقنوا الغلب وأرسل الأذفونش إلى المعتمد في ميقات القتال ، وقصده الملك فقال : غدا السبت وبعده الأحد فيكون اللقاء يوم الاثنين... فوق القتال بينهم فصر المسلمون فأشرفوا على الهزيمة ؛ وكان المعتمد قد أرسل إلى أمير المسلمين يعلمه بمجيء الفرنج للحرب ، فقال أحملوني إلى خيام الفرنج . فسار إليها فينما هم في القتال وصل أمير المسلمين إلى خيام الفرنج فنبها ، وقتل من فيها . فلما رأى الفرنج ذلك لم يبالكوا أن انهزموا وأخذهم السيف وتبعهم المعتمد من خلفهم ولقيهم أمير المسلمين من بين يديهم ووضع فيهم السيف ، فلم يفلت منهم أحد ، ونجا الأذفونش في نفر يسير...

* * *

ويقول ابن الأثير في الجزء الحادي عشر :
ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

ذكر انهزام الفرنج بحطين

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لحمس بقين من ربيع الآخر فركبوا وتقدموا إلى الفرنج ، فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض ، إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا... وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية لعلهم يردون الماء ، فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم ووقف بالعسكر في وجوههم وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم ، والناس يأترون لقوله ويقفون عند نهيه... وكان بعض المتطوعة قد ألقي في تلك الأرض ناراً وكان الحشيش كثيراً فاحترق ، وكانت الريح فحملت حر النار والدخان إليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال... فوهنوا لذلك وهناً عظيماً ، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها ، فارتفع من بقي من الفرنج إلى تل بناحية حطين ،

وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به ، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعواهم عما أرادوا... هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ورجالهم ، فبقى الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين . فحكى لى عن الملك الأفضل ولد صلاح الدين قال : كنت إلى جانب أبى في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة ، حملوا حملة منكراً على من بازائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بالدى . قال فنظرت إليه وقد علته كآبة واربد لونه وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان . قال : فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحى : هزمناهم... فالتفت والدى إلى وقال : اسكت ، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة (خيمة ملك الصليبيين) . قال فهو يقول لى وإذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان (صلاح الدين) وسجد شكراً لله تعالى فبكى من فرحته..

ثم دخلت سنة سبع عشرة وسمائة .

ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام .

لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى . فن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ومن الذين يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أى لم تلدى ، ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً... ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً ، فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى... فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ؛ فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها... وهؤلاء

(التتر) لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فانا لله وإنا إليه راجعون . . . فان قوماً ما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره ، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً ثم يتجاوزونها إلى الري وهمدان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق . . . فملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة ولم يبت أحد من البلاد التي يطرقوها ألا وهو خائف يتوقعهم ويتربص وصولهم إليه . ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم فانهم معهم الأغنام والبقر والحيل وغير ذلك من

الدواب يأكلون لحومها لا غير . . . ولقد بلى الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم . منها هؤلاء التتر قبضهم الله أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها ، وستراها مشروحة متصلة إن شاء الله تعالى . ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها ؛ وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم ، وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستائة . ومنها أن الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق ، وقد ذكرناه أيضاً . فانا لله وإنا إليه راجعون نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده فان الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم . . . »